الفصل السابع :

المتنبي .. والسرقات الأدبية

obeikandl.com

obeikandl.com

اهتم النقاد أيما اهتمام بمعرفة الجديد والمسروق لدى كل شاعر. ذلك لأن دراسة هذين الجانبين ستضع أيدينا على مدى التطور الذى أصاب الحياة فى جميع مرافقها المادية والمعنوية ، لأن كل تطور يصيب أية زاوية من زوايا الحياة سينعكس أثره بالضرورة على الأدب وعلى ألسنة الأدباء . كما سيوقفنا على مدى تفاعل هؤلاء الأدباء مع البيئة والظروف المتغيرة التى يعيشونها. ثم إن معرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب سيكشف لنا مقدار ثقافته ، ومدى تمثله للتيارات الثقافية التى ظهرت واستفاضت فى زمانه ، وموقفه من هذه التيارات المختلفة وقدرته على التأثير فيها أو التأثر بها ، مما يحدد لنا شخصيته الأدبية ، ويوضح لنا مقدار نضجه الفنى واحترامه لنفسه وفنه . كما أنها تفصح – فى الوقت ذاته – عن مشرب الأديب واتجاهه النفسى وتكوينه الأدبى وقوامه الثقافى ، وذلك حينما أمامنا شخصية الأديب الذى يستوحيه غالباً ويصاحبه فى تياره ويسير معه فى فلكه .

وبمعرفة الجديد والمسروق لدى كل أديب ، سنستطيع أن نعرف المنزلة الأدبية التى يتبوأها فى ركب الأدباء . ولن نستطيع تحديد هذه المنزلة تحديداً صارماً ما لم نعرف الجديد الذى أضافه إلى تراثنا الفنى ، والقديم الذى أضاف إليه شيئاً يبرز به شخصيته ويثبت وجوده ، والمسروق الذى سطا عليه وخاتلنا دون أن يكون له فيه فضل أو أثر

وهى أيضاً – أى تلك المعرفة – لون من الجهارة نؤذن السارق بالفضيحة والهوان فينصرف عنها إلى التجديد والابتكار إذا كان من ذوى الاستعداد الفنى وبذلك تسير القافلة إلى الأمام بدلاً من لفها حول نفسها ، وعكوفها – جامدة – على آثار أسلافها .

وليس معنى ذلك أننا نحرم على الأدباء الانتفاع بآثار السابقين ...لا ، بل نحن نوجب الإطلاع على آثارهم ، والإحاطة البصيرة بنتاجهم . كما نقر الأخذ عنهم والانتفاع بهم استجابة لقانون التطور العام ، ولكن فى حدود القواعد التى أقرها السابقون والتى نراها قواعد جيدة نرضى عنها ونؤمن بها عن ثقة وبصر... ،وهى

١. أن السرقة لا تكون فى المعانى العامة ، ولا فيما شاعت بين الناس حتى غدت كالفطرة العامة [١] .
٢. أن السرقة لا تكون إلا فى المعانى الخاصة ذات الارتباط الوثيق بمقام معين أو تجربة ذاتية خاصة [٢] .
٣. إن مبتكر الفن الأدبى أو الصورة الخيالية أو العبارة الجملية مفضل على سائر الآخذين عنه [٣].
٤. إن من أخذ معنى من غيره فزاد فيه بتوليد شىء جديد منه لا يُعَدُّ سارقاً [٤] .
٥. إن من آخذ معنى فعكسه إلى ضده لايُعَدُّ سارقاً [٥]

٦. إن من آخذ المعنى واللفظ برمتهما ، أو أخذ المعنى فشوه جماله أو أساء معرضه ، لزمه عيب السرقة ومذمة القصور [٦] .

تلك هى الأسس الأصلية والصائبة التى تلائم منطق العدل والإنصاف فى جانبها النظرى . أما فى المجال لتطبيقى فالأمر مختلف .

فالحاتمى مثلاً تعقب أبا الطيب المتنبى راصداً ظالماً راداً كل بيت مما كتب إلى مصدر قريب أو بعيد ، حتى انتهى فى الحكم على كل نتاجه بأنه مسروق ....و

ما أعرف لك إحسانا فى جميع ما ذكرته . إنما أنت سارق متنبع ، وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك [٧] .

وينقل الجرجانى فى "الوساطة" قول آخر عن المتنبى :

ما يسلم له بيت ، ولا يخلص من معانيه معنى ، وما هو إلا ليث مغير وسارق مختلس

ويقول العبيدى فى "الإبانة" :

ولقد تأملت أشعاره كلها – يعنى المتنبى – فوجدت الأبيات التى يفخر بها أصحابه ، تُعَدُّ بها آدابه من أشعار المتقدمين منسوخة ، ومعانيها من معانيهم المخترعة مسلوخة .

وهكذا عكف النقاد قديماً على دراسة سرقات المتنبى بشكل يفوق عكوفهم على أى جانب آخر من جوانب إبداعه ومن الكتب التى تم تأليفها فى هذا الأمر

١- الإبانة عن سرقات المتنبى لأبى سعيد محمد بن أحمد العبيدى المتوفى سنة ٤٣٣هـ.

٢- الكشف عن مساوىء شعر المتنبى لأبى القاسم إسماعيل بن عباد الشهير بالصاحب والمتوفى سنة ٤٥٠هـ.

٣- سرقات المتنبى ومشكل معانيه لابن بسام النحوى ، وهو على الراجح صاحب " الذخيرة" – والمتوفى سنة ٤٥٠هـ.

٤- الرسالة الموضحة للحاتمى المتوفى سنة ٣٨٨هـ.

٥- الفتح على أبى الفتح لمحمد بن فورجة المتوفى فى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وله أيضاً التجنى على ابن جنى فى شرحه لديوان المتنبى

٦- الوساطة لعبد العزيز الجرجانى.

٧- يتيمة الدهر للثعالبى.

وإن كان الأخيران قد تكلما كثيراً عن إحسان أبى الطيب المتنبى فى شعره.

والقارىء لهذه الكتب وغيرها يجد أن مؤلفيها ردوا كثيراً من أشعار المتنبى ونسبوها إلى شاعر آخر مشهور أو مغمور إلى حد أنه أصبح من الصعب تحديد الأشخاص الذين اتخذهم أبو الطيب أساتذة يتلقى عنهم الوحى ويأخذ منهم المعانى والأفكار.

وإذا كان ابن ابن الرومى وأبو تمام والبحترى فى مقدمة من ذكروا أنه أخذ عنهم واستقى أفكاره منهم فإن هناك من الأسماء التى أقر هؤلاء النقاد أنه أغار عليها وانتفع بها ما لا عهد لنا به من قبل لا إلف لنا به فى مجال التاريخ الأدبى

obeikandl.com

الذى لا يستطيع استقراء كل شاعر واستقصاء بصورة تنفى شبهة نسيان البعض أو عدم العلم به .

وقد ذكر الجرجانى فى "الوساطة" عدداً من الشعراء الذين قيل إن المتنبى أخذ عنهم وعددهم يزيد على المئة منهم امرؤ القيس ،وسالم بن وابصة ، والفرزدق وجرير ، وابن الرقيات ، وأبو دلف ، وابن الخياط وغيرهم .

وهذا افتئات على الشاعر ولا شك . فمن المستبعد أن يغير المتنبى على معانى أولئك السابقين عليه وفيهم الخامل الذى أسقطه التاريخ والنابه الذى وجد له مكاناً فى موكب الخالدين . ذلك فضلاً عن أن تشابه الفكرة لا يعنى بالضرورة أن الشاعر قد أخذها من شاعر آخر سابق عليه . فالمعانى الإنسانية العامة مثل :الحب والوفاء ،والبطولة ، والفتوة ، وحب المال ، والمجد ، والصراع من أجل لتفوق والاستعلاء ، والتغنى بالقوة والسيف ، كل هذه المعانى وغيرها التى احتفى بها أبو الطيب ملك مشترك للإنسانية جمعاء . وما زال الشعراء منذ العصر الجاهلى وحتى عصرنا الحديث يتغنون بها لكنهم يختلفون فى طريقة التعبير .

ومعنى ذلك أن مبحث السرقات الأدبية بالنسبة لأبى الطيب لا يحدد لنا الشخص أو الأشخاص الذين أعجب بهم وأتخذهم أمثلة له يستقى منهم الأفكار ويأخذ عنهم المعانى ، بقدر ما يدلنا على أننا أمام رجل موسوعى الثقافة كثير القراءة ، مستوعب للتراث الأدبى بأعلامه وخامليه ، يتلقف الفائدة أنى كان مصدرها ، ويتمثل ما لقيه ووقع عليه ما دام مسايراً لوجهته مصوراً لفكرته [٨] .

وإذا كان العميدى قد أجهد نفسه ليثبت انتفاع المتنبى بالطائيين وبابن الرومى [٩] ، فإن الشاعر نفسه يعترف بذلك ولا يدفعه عندما يقول :

أوَيَجُورُ للأديب ألاَّ يعرف شعر أبى تمام وهو أستاذ كل من قال الشعر بعده [١٠] .

كما أننا نعلم أنه عندما قتل فى طريق الأهواز ، وجد معه ديوانا أبى تمام والبحترى بخطه وعلى حواشى الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه .

ويدعو القاضى الجرجانى إلى التأنى والتحرز والتأكد قبل اتهام شاعر بأنه أغار على معنى شاعر سابق أو معاصر، فيقول :

وهذا باب يحتاج إلى إنعام الفكر ، وشدة البحث ، وحسن النظر ، والتحرز من الإقدام قبل التبين ، والحكم إلا بعد ثقة ، وقد يغمض حتى يخفى ، وقد يذهب منه الواضح الجلى على من لم يكن مرتاضاً بالصناعة ، متدرباً بالنقد وقد تحمَّل العصبية فيه العالم على دفع العيان ، وجحد المشاهدة ، فلا يزال على التعرض للفضيحة والاشتهار بالجور والتحامل [١١] .

إلا أن هذا الميزان المستقيم ، وتلك النزاهة فى الحكم لم تكن ديدن كل الذين تعرضوا لشعر أبى الطيب واتهموه بالسرقة .

فالصاحب بن عباد مثلاً – وما أدراك بعنف الخصومة بينه وبين المتنبى ينصرف عن تتبع سرقاته ولماذا ؟ .. لأن : السرقات ليست من العيوب الخاصة بالمتنبى ، وليست بالجناية التى تقتضى منه أن يجلس له كل مرصد ، ولكنها عيب قديم درج عليه الشعراء [١٢] .

ونحن هنا أمام منهج نقدى غريب . فما ينسحب على الشعراء ، كل الشعراء لابد أن ينسحب بالضرورة على أبى الطيب . وما دام الشعراء يغيرون على أفكار ومعانى الآخرين فلم يُسْتَثْنَى المتنبى ؟ أليس واحداً منهم ؟؟. وهكذا تثبت التهمة دون بحث أو تدقيق أو بذل أدنى جهد أو عناء ولم التحرز قبل إصدار الحكم الجائز ما دام سوء القصد مبيت ؟؟؟ .

ويقول الأستاذ عباس حسن : إن المتنبى كان من رواة الشعر، ومن أكبر حفاظ الدواوين . ومثل هذا قد ينطق فى شعره كلام غيره دون تدبير ولا ترتيب سابق . وقد يجرى على لسانه ما ليس له دون أن يشعر. ومكانته الأدبية وثقته بنفسه بل وغروره وكبرياؤه وكثرة حسَّاده وأعدائه الذين يتربصون به الدوائر ، كل أولئك يمنعه أن يسرق كلام غيره وأن ينتهب ما ليس له [١٣] .

وهذا رأى موضوعى على نحو ما ... لا ينفى توارد الخواطر ، أو خروج المخزون فى اللاوعى دون قصد ، لكنه ينفى سبق الإصرار أو سوء النية . وهو يتفق – إلى حد بعيد – مع ما قرره المتنبى عن نفسه عندما سُئل عن اتفاق الخواطر فقال:

الشعر ميدان والشعراء فرسان ، فربما اتفق توارد الخواطر كما يقع الحافر على الحافر.

لكن تلك الموضوعية تفرغ من محتواها عندما يستطرد الأستاذ عباس حسن ناسياً ما سبق أن قرره منذ لحظات ، فيقول :

على أنى – بالرغم من ذلك – وقعت على أبيات كثيرة لا أستطيع الدفاع عنها ولا إخراجها من السرقات [١٤] .

وبعد أن يسوق تلك الأمثلة يقرر مطمئناً :

إن المتنبى مختلس زائف العظمة ، لا صلة بين حقيقة نفسه وظاهرة غروره وادعائه . ومن استباح أن يسرق أبا تمام والبحترى استباح أن يسرق غيرهما ، وأن يعرض تلك النفائس المسروقة مموهة مصقولة على أنها ملك يمينه وهى تبرأ من فعلته وجرأته .

ويفرد الدكتور أحمد نصيف الجانى [١٥] بحثاً كاملاً عن أثر شعر " العكوك " [١٦] فى شعر المتنبى ، يبدأه بقوله :

ما أكثر ما تبدو الأشياء الغريبة ظريفة . وقد يظهر الرجل عظيماً ووراء عظمته آخرون . وقد لا يكون الإنسان عظيماً فى فنه وهو مدين بجزء من عظمته الفنية للآخرين . وربما تبدو هذه القضية غريبة وهذا شأن المتنبى . فجزء من عظمته الشعرية يرجع إلى شعراء كانوا فى الظلال ، ولم تسمح لهم عوامل عديدة بالظهور أمام الأضواء ، لأنهم لم يترددوا على أبواب الخلفاء وقصورهم المفعمة بالأضواء والمظاهر الخلابة . وما أكثر ما تكون المظاهر الخلاَّبة زائفة وتكون الحقائق الأصلية فى الأعماق بعيداً عن الأضواء .

ثم يسوق الدكتور الجنابى ستة عشرة صورة من أشعار العكوك اقتبسها أبو الطيب . ويخلص سيادته إلى تفوق شعر " العكوك" خاصة فى رسم الصورة التى كانت أقوى من صور المتنبى تأثيراً وأكثرها إيحاءً .

أما صاحب "الصبح المنبى" [١٧]، فيفرد عشرات الصفحات للأبيات التى سرق المتنبى صوراً أو ألفاظاً أو معانى منها ، وهى لشعراء سابقين عليه . كما يورد فى المقابل ما أخذه الصاحب وأبو إسحق الصابى والخوارزمى من أشعار أبى الطيب وصاغوه نثراً فى بعض رسائلهم ، كما يلحق ذلك بما أخذه بعض الشعراء منه .

ويحاول المستشرق كورفروا دموبين [١٨] حيال هذا السيل من الاتهامات أن يدافع :

"إن إقامة الحجة على أن كاتباً مشهوراً محروم من الأصالة ، وأنه سرق أفكاره وصوره وأوزانه من قدماء الكتاب المعروفين أقل منه ، صفق لها بعض النقاد وزمروا بفظاظة " .

ويخفف الجرجانى من وطأة الهجوم ويلتمس العذر [١٩] :

" حدثنى عمن تعظم من أوائل الشعراء أو من تفتح به طبقات المحدثين ، هل خلص لك شعر أحدهم من شائبة وصفا من كدر ومعابة ، وأبو الطيب واحد فى الجملة ، فكيف خلص بالظلم من بينها ؟؟.

ويجدر التنويه هنا إلى أن لفظ " السرقة" لا يروق لبعض الأدباء والنقاد ويستعملون مكانه ما يؤدى معناه دون أن يثير فى النفس ما يثيره لفظ "السرقة " مثل : الأخذ ، والاتباع ، والاقتباس .. وغيرها . لكن الحقيقة أن استعمال لفظ "السرقة" مع تحديده التحديد العلمى الكافى كما فعل أسلافنا من النقاد أحسن فى رأيى من أى لفظ آخر ، لأنه سيفضح كل من يسطو على نتاج الناس ممن يصرف

الأدباء إلى الابتكار لا التقليد ، وسيبرىء التحديد العلمى كثيراً من هذه التهمة التى يتهمون بها جزافاً تشفياً وانتقاماً، أو جهلاً واضطراباً [٢٠] .

وإذا ما عدنا إلى سرقات أبى الطيب المتنبى ، نقول إننا من جانبنا لا نستطيع أن نكرر بعض ما قيل ، لكننا نأبى أن نسلم بكل ما قيل وما أثير حول الشاعر من دراسات فى مجال السرقات الأدبية . فأصحابها لم يلتزموا جانب الإنصاف والدقة والحيدة ، ذلك لأن الحسد والوقيعة استجابة للخصوم أو إرضاء للحاكمين والحرص على إذلال ذلك الشاعر المترفع المتعالى ، كل ذلك فتح باب اتهامه بالسرقة على مصراعيه ؛ لأنه أقرب طريق للهدم ، وأسهل دعوة يدعيها الخصم ما دامت لن تكلفه كثيراً من عناء المناقشة والدرس والتحليل والتعليل . ذلك فضلاً عن إغراء السابقين لغيرهم من الباحثين بالسير على آثارهم حتى خلفوا لنا هذا القدرمن الدراسات .

ولا يعنى هذا أن أبا الطيب المتنبى برىء تماماً من تهمة السطو على إبداع غيره ، فالأخذ عن السابقين سنة من سنن الحياة . وهذا ما يجعلنا نتفق مع ما أورده صاحب "المتنبى بين ناقديه" من أن الشاعر كان فى أغلب الأحايين : يجيد الإجادة المشكورة، ويزيد الزيادة التى تشفع له وتعفيه من اللوم وتبرئه من العيب [٢١] .

الهوامش

١. عبد العزيز الجرجانى : الوساطة بين المتنبى وخصومه .

٢. ابن الأثير: المثل السائر.

٣. أحمد الشايب :أصول النقد الأدبى .

٤. أبو هلال العسكرى : الصناعتين .

٥. ابن الأثير : المثل السائر.

٦. السابق .

٧. ياقوت الحموى :معجم الأدباء .

٨. د. محمد عبد الرحمن شعيب: المتنبى بين ناقديه ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

٩. الإبانة عن سرقات المتنبى .

١٠. يوسف البديعى: الصبح المنبى عن حيثية المتنبى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٣.

١١. الوساطة ، مرجع سابق .

١٢. الكشف عن مساوىء المتنبى .

١٣. عباس حسن : المتنبى وشوقى ، دار المعارف بمصر ١٩٦٤.

١٤. السابق .

obeikandi.com

١٥. مقال بمجلة المورد ، العراق ، عدد خاص عن المتنبى ، العدد الثالث المجلد الثالث ١٩٧٧ .

١٦. هو أبو الحسن على بن جبلة بن عبد الله المعروف بالعكوك (١٦٠ – ٢١٣هـ).

١٧. يوسف البديعى ، مرجع سابق .

١٨. مجلة المورد ، مرجع سابق .

١٩. الوساطة .

٢٠. المتنبى بين ناقديه ، مرجع سابق .

٢١. د. محمد عبد الرحمن شعيب ، مرجع سابق .

obeikandl.com